

العناصر المعمارية ووظيفتها الزخرفية

أ. مرزوق بنة

جامعة المسيلة

أولاً: مقدمة:

الزخرفة هي إضفاء الشكل الجميل على المضمون أو التعبير، وهي من الفنون التابعة. وبعبارة أصح فهي تمثل الموضوع بالخطوط والأشكال والألوان والضلال بتجلياتها وامتداداتها وتراجعها، والزخرفة كالظل بالنسبة للعمل الفني وتتصل بأداء الفنان وذوق المشاهد. وذلك كله بغرض جعل المحسوس لغة أصلية تحمل طابع الطراز أو الأسلوب، وهي تعتمد دائما إلى جعل الموضوع محسوسا معبرا¹.

والموضوع في فن الزخرفة الإسلامية هو تلك الزخارف صورا كانت أو أشكالا أو أحجاما من الكائنات الحية أو المواضيع الكتابية أو النباتية أو الهندسية وما يتخللها من تصميم وتركيب ومزج وما إلى ذلك²، التي تزين الآثار الثابتة من عمارات مختلفة أو تزين النحف المنقولة، المصنوعة من مواد مختلفة كالفخار والخزف والمنسوجات والخشب والعاج والمعادن والزجاج والورق. وتعتبر الفنون الإسلامية أو سع الفنون انتشارا وأطولها عمرا، بحيث كان مولدها في القرن 2هـ / 8م. وظلت تنمو وتترعرع حتى بلغت عنفوان شبابها في القرنين 7هـ - 8هـ / 13 - 14م ثم دب إليها الهرم والضعف منذ القرن 12هـ / 18م. بعد أن تأثر الفنانون والصناع في ديار الإسلام بمنتجات الفنون الغربية وأقبلوا على تقليدها. ولكن هذا التأثير لم يتمخض في معظم الحالات إلا عن صيغ فنية مسموخة، وضعف في الوقت نفسه تمسك أو لائق الفنانين والصناع بأساليبهم الفنية الموروثة، وضنوا بالوقت اللازم لإتقانها حيث أصبحت السرعة في الإنتاج والاقتصاد في النفقات أساس الحياة الاقتصادية³.

¹ - زكريا إبراهيم، مشكلة الفن، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1976، ص48.

² - لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرئية بتلمسان، دار الملكية، ط1، 2007، ص39.

³ - حسن زكي محمد، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، المقدمة.

ومنذ أقدم العصور والإنسان مدفوع بطبيعته إلى التأمل فيما يحيط به من أشياء، أدركها وأحس بحماها واستمتع بها، وعندما ألحت على الإنسان الأول حاجته إلى التجميل والزخرفة، كان من البديهي أن تكون الطبيعة مصدر الهامة، واستوحى من بعض ما يحيط به من مشاهدتها، عناصر زخرفية لخطوط بدائية، زين بها كهفه ووشم بها جسده. وبمرور الزمن واستمرار التطور، وتوفر بعض أسباب أمنه وسلامته. ارتقى بفكره ونمت حواسه، استخدم عناصر زخرفية بسيطة من الأشكال الهندسية والنباتية والحيوانية جمل بما مأواه، وبعض أسلحته وأوانيه¹.

أما الجماعة الإسلامية فلقد كان يغلب عليها في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين من بعده، البساطة في العيش والجهاد في سبيل الله. فلم يكن المجتمع الإسلامي حينئذ مرتعا خصيبا للفنون الجميلة بأنواعها². وفي ذلك يقول ابن خلدون: (فكان الدين أو ل الأمر مانعا من المغالاة أو البنيان والإسراف في غير قصد)³.

ولما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى، جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد. واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صورا فنية جديدة لا تخرج عما رسمها الدين الإسلامي، على أن الأمر الذي يسترعي النظر هو أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير الجسم عنائتهم بالبناء والزخرفة لأنهم رأوا في ذلك تشبها بعبدة الأوثان، ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية⁴.

¹ حسن علي محمود، فن الزخرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص 05.

² حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، دار الجيل، ط1، بيروت، 2001، ص 418.

³ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، ط5، بيروت، 1984، ص 312.

⁴ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص ص 08، 25، 43.

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس، طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطراز خاص من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب والمقرنصات والدلايات. ولا شك أن الذين قاموا بالأعمال الفنية الأولى في الإسلام كانوا من السكان الأصليين، من السوريين والعراقيين والأقباط والبربر، وهم الذين وضعوا الأسس الأولى للزخرفة الإسلامية¹. إلا أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، وبالرغم من ذلك فإن العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها². ولقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين، ومن مميزات الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية، فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيت من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة تدور حول حافة التحف الأثرية، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار.

وقد ازدهر في عهد الأمويين الذين تولوا حكم الخلافة الإسلامية من سنة 41هـ / 661م إلى سنة 132هـ / 749 - 750م. فن النقش على الجدران، ولا يزال بعض بقاياها ماثلاً في قصر عمرة الذي عثر عليه العالم ألبوس موزيل alios musil سنة 1898م، وهو قصر صغير عبارة عن مبنى ذي طابق واحد مشيد بالحجارة، ويذهب علماء الآثار على أنه شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي³.

كما أن خلفاء بني أمية استعانوا في بناء جامع دمشق سنة 88هـ / 707م، بعمال سوريين وبيزنطيين لتجميله بالفسيفساء، وأتبع العباسيون (132هـ / 750م) هذا التقليد في جلب المواد والصناعات من مختلف الأقاليم، وبذلك بدأ أسلوب إسلامي ناشئ ينمو تدريجياً مشتق بالأخص من مصدرين فنيين هما: الفن البيزنطي والفن

¹ مرزوق محمد عبد العزيز، الفن الإسلامي تاريخه وحضارته، مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص 78.

² حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 419.

³ عبد يوسف، موسوعة الحضارة العربية، ج9، دار كلمات للنشر، 1995، ص 1449.

الساساني. ويلاحظ اقتباس التعبيرات الفنية من هاذين المصدرين ووجودهما جنباً إلى جنب في الآثار الإسلامية الأولى مثل: فسيفساء قبة الصخرة (691/ 692م). وواجهة قصر المشتى¹، ولقد اختلف علماء في نسبة هذا القصر فمنهم من نسبه إلى يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ / 720 - 724م)، لتشابه بعض عناصره المعمارية وعمارة العصر الأموي الأول. ومن العلماء من نسبه إلى الوليد الثاني (125 - 126هـ / 743 - 744م)².

وقد نجح الأمويون والعباسيون في فرض أسلوبهما على الدولة الإسلامية، ووفقوا في ذلك إلى حدّ كبير، ولم يكن هذا النجاح وليد الصدفة، بل كان تطوراً منطقياً متماشياً مع ظهور حضارة جديدة، عرفت كيف تستفيد من الحضارات السابقة المحيطة بها³.

ومن خلال هذا العرض الخاص بأصول فن الزخرفة الإسلامية، نستخلص أن الفن الإسلامي لم يقتبس وحدات أو عناصر أو تفاصيل زخرفية من التقاليد الفلستينية أو الرومانية بطريقة مباشرة، بل كان الوسيط بينهما هو الطراز البيزنطي الذي يمكن اعتباره قد ولد من الطراز الروماني، وقام على كثير من تقاليده وأخذ أغلب عناصره ووحداته منه بعد أن أدخل عليهما أذواقاً شرقية⁴. ومن الطبيعي أن مبتكرات المعماري في ديار الإسلام، لم تكن ذات طراز واحد في القرون الطويلة التي

¹ الشافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج1، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970 ص 51.

² عيد يوسف، المرجع السابق، ج9، ص 1447.

³ مرزوق محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 87.

⁴ Papadopoulo (a) , l'islam et l'art musulman ,éd, citadelles et mazenod ,Paris , 1980 , p 42

ازدهرت فيها الفنون الإسلامية، وطبيعي كذلك أنها لم تكن متناظرة ومتشابهة تماما في أقاليم الإمبراطورية الإسلامية كلها¹.

العناصر والمظاهر المعمارية المتصلة بالعمارة

1. المقرنصات:

كلمة مقرنص مأخوذة - أغلب الظن - من الكلمة العربية "مقرنص" أي جالس القرفصاء. ويطلق الأوربيون على هذا الزخرف كلمة ستالكتيت stalactite، وهذه الكلمة الأوربية تعني في الأصل الأعمدة الكلسية الرفيعة المخروطية الشكل التي تتدلى من سقف بعض الكهوف مثل كهف قديشة بلبنان، ولكن هذه الكلمة الأوربية لا تعبر عن كل الصور التي يتجلى فيها هذا الزخرف، إذ لا تصدق إلا على صورة واحدة منه².

والمقرنصات عبارة عن تقنية زخرفية يدوية ابتكرها البناء والمزخرفون المسلمون، فوامها أشكال هندسية بسيطة ثابتة، حيث تلتحم مع بعضها البعض، إما عن طريق التعشيق أو التركيب المتسلسل في الاتجاه العمودي المتطابق والأفقي المتجاور بكيفيات رياضية دقيقة جدا. قائمة على اعتبار المربع هو أبسط الأشكال الهندسية المتوازنة، وذلك باعتماد القيمة العددية لنسبة طول ضلعه، مقارنة مع طول وتره والتي تساوي دائما الجذر التربيعي للعدد اثنان، والذي يساوي القيمة المطلقة 1.414، كقاعدة أساسية لعلاقات التناسق والتناسب بين الأبعاد الحسائية لعناصره العضوية.

فيكون بذلك منطلق تركيبها مستندا إلى نقطة مرجعية معلومة، مكونة بذلك زخرفة تجريدية ثلاثية الأبعاد (الارتفاع والعمق والعرض)، قصد التحكم في كيمياء الضوء، أو تقنية التلاعب بالظل والتي يبدو مظهرها الخارجي في أشكال متنوعة لا

¹ حسن زكي محمد، أطلس الفنون الزخرفية، المقدمة.

² مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، د

حدود لها، تبعاً في ذلك لتعدد تقنيات التركيب المعتمدة، وكذا شكل وحجم مساحة الفضاء المعماري المشغول، وعليه فإن قوام المقرنصات مدارج مسقوفة متطابقة ذات أشكال متعددة، حيث يتوسطها فضاء هندسي إما مجوف وإما بارز، تتلامس وتقاطع فيه تلك الأشكال الهندسية المتجاوزة فيما بينها، بميل زاوية مقدارها قائمة (90°)، أو زاوية نصف قائمة (45°)، أو مجموع زاوية قائمة وزاوية نصف قائمة (135°)، وهي الزوايا الأكثر تداولاً بين أهل الحرفة وتلامس هذه الأشكال الهندسية مع سطح قاعدتها، بمقدار زاوية مستقيمة (180°)، حيث يسمى الفضاء الهندسي الذي تفرزه عملية لصق تلك الأشكال ببعضها البعض "بالبيت" وسلسلة البيوت المتجاوزة أفقياً على نفس الاستقامة "بالطبقة"، كما يسمى مقدار قاعدة الأشكال في التركيبة "بمقياس المقرنص".

وقد اتخذت المقرنصات من أربع مواد أولية أساسية خفيفة، حتى لا تؤثر بثقلها عن العناصر المعمارية المشيدة إذ نجد إما مشكلة بالآجر أو مقولبة في الجص أو محفورة على الخشب أو منحوتة في الصخر¹. ويشبه المقرنص الواحد إذا أخذ مفصلاً بمجموعته الخراب الصغير أو جزء طولياً منه، وتستخدم المقرنصات في صفوف مدروسة التوزيع والترتيب، حتى لتبدو كل مجموعة من المقرنصات وكأنها بيوت النحل² والمصدر الأصلي لهذه الزخرفة هو الكوة أو التجويف، الذي يقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة، يراد تسقيفها بالقبة حتى تستقر عليه

وقد ورث المسلمون هذه الطريقة عن الأمم السابقة عليهم، واستخدموها في عمائرهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يصيروا طولياً على بساطة تلك الكوة التي كانت قبل الإسلام عاطلة من كل زخرف.

¹ شرقي الرزقي، تطور المقرنصات في عمارة المغرب الإسلامي (5-7هـ / 11-13م)، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1999-2000، ص 30-32.

² وزير يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 135.

بل كاد يتهدب ذوقهم، وترتقي ملكتهم الفنية حتى أخذوا يعدلون في شكل الكوة، ويعقدون في مظهرها فقسما الواحدة منها إلى كوة صغيرة متجاورة، بعضها راكب فوق بعض، وتفننوا في وضعها وتنسيقها وفي تزيين جوانبها بالرسوم المختلفة حتى بدت قطعاً من الفن الجميل¹.

ويظهر أن بدء استعمال المقرنصات في العمائر الإسلامية، يرجع إلى القرن 5هـ / 11م. ثم أقبل المسلمون على استعمالها إقبالا عظيما، حتى صارت من أظهر مميزات العمائر الإسلامية في واجهات المساجد، وفي المآذن وتحت القباب، وفي تيجان الأعمدة، وفي السقوف الخشبية، واختلفت أشكالها باختلاف الزمان والمكان في الإمبراطورية الإسلامية². ويرجح أن أقدم مثال مؤكد التاريخ لهذه المقرنصة يرجع إلى عهد الخليفة المعتصم، عندما بنى الذي عرف بالجوسق الخاقاني سنة 221هـ / 836م. إذ يوجد نموذج لها في باب العامة، وهو المدخل الرئيسي للعظيم لقصر المعتصم على نهر دجلة في مدينة سامراء³، كما أنه ظهرت أمثلة لهذه المقرنصات في مدينة القيروان لتحمل القبة التي تتقدم المحراب، التي أقامها زيادة الله بن الأغلب سنة 221هـ / 836م⁴.

وللمقرنصات عدّة أنواع نذكر منها:

أ- المقرنصات ذات المركزين:

هي عبارة عن عقد شبيه بالمخمس، ذي مركزين يتكرر هذا العقد في صفوف متراصة، بينهما مسافات تسمح بإعطاء النسبة الجميلة لرجلي الدلاية، من المسقط الأفقي للدلاية المقرنصة نصف مثنى ضلعه الأوسط مفتوح إلى الداخل، كما أن

¹ مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية، ص 88، 89.

² حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 152.

³ الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 53.

⁴ حسن زكي محمد، الفن الإسلامي في مصر، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 265.

تُهاية الدّلاية مفتوحة إلى الداخل أيضا ومثمّنة الشكل، بحيث تتلاقى خطوطها من أعلى إلى أسفل.

ب- المقرنصات المدببة:

هي عبارة عن عقد مدبب ومتكرر، نفس نظام العقد السابق، ولكن يختلف عنه بأن له زوايا بدلا من المراكز.

ج- المقرنصات الكبيرة:

تستعمل أسفل القباب للتمهيد بين المربع والدائرة بالمثلن، ومن المثلن إلى المقرنصات. كما توجد في بعض الأحيان بين هذه المقرنصات فتحات "قنديليات" *، من الداخل ومن الخارج بحجر صناعي مفرغ من أي زخرفة، أو حديد ونحاس مشغول.

د- مقرنصات بطنية العقود:

تستعمل هذه المقرنصات في بطنية العقد، التي لها من الأعلى بروز مستمر، حتى ينتهي بحطة واحدة من المقرنصات (صف واحد)، ومن الممكن زيادته إلى حطتين حسب نسبة البروز. وفي هذه الحالة تسمى بالمقرنصات المركبة، والعقد هنا هو الأساس، أما المقرنصات فتكون كحلية مكملة للعقد.

هـ - مقرنصات تيجان الأعمدة:

إن استعمال هذه المقرنصات بحطات تقيد بقطر بدن العمود وارتفاعه، بحيث تندرج الدّلايات من أعلى التاج إلى أسفله (أي أعلى بدن العمود)، إما بحطة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة على أن تكون نسبة ارتفاع العمود متماشية مع حطّات المقرنص، وطبيعي فهذا يرجع إلى التصميم. أما في حالة حطة واحدة أي صف واحد من المقرنصات، تكون وحدة المقرنص كبيرة لتعطي نسبة التاج¹.

* القنديلة: عبارة عن شبك من الزجاج الملون مثبت بالجص.

¹ خلوصي محمد ماجد، عمارة المساجد - تصميم وتاريخ وطرز وعناصر - مطابع سجل العرب،

1998، ص ص 532، 533.

وبعد انتشار المقرنصة الإسلامية وتطورها، تحول هذا العنصر بالتدريج من عنصر معماري إلى عنصر زخرفي، بحيث أصبح من أبرز عناصر الزخرفة الإسلامية التي ليس لها روح¹.

2. العقود*:

العقد عنصر معماري مقوس، يعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر، ويشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها، وهو يتألف من عدة حجارة، الواحدة منها تسمى فقرة أو صنجة.

والباحثون يرجعون نشأة العقود إلى بلاد الرافدين، حيث ينذر الشجر ويقل الحجر، وكانت مادته الأولى الطين والآجر ومن دون شك أتاح الفرصة للتحرر من القيود التي فرضتها مادتي الخشب والحجارة. وأقدم مثال للعقود وجد في العراق ويعود إلى سنة 2900 ق.م².

ولقد تفنن المسلمون في استخدام العقود وتنويعها حتى أصبحت طابعا إسلاميا معماريا، بحيث عرفت التماز أنواعا مختلفة من العقود، وكان كل إقليم من الأقاليم الإسلامية يفضل بعض هذه العقود عن البعض الآخر.

ولقد اتخذ المسلمون أقواسا كثيرة ذات أنواع وأشكال مختلفة فمنها العقد المزخرف بالمقرنصات ونجده في الطراز الإسباني المغربي³، والعقد النصف دائري والعقد

¹ - Bel (a), les industries de la céramique à fés, éd. carbonel, alger, 1918, p 57

² يطلق مصطلح العقود على كل مجموع حجري أو آجري أو ملاطي مخصص لاجتياز فضاء يكون كبيرا، يتوسطه شكل مني يعرف بالعقد. ومعماريا تعني قبو ذي شكل كامل برابطة قوية أو عدة أقواس لجزء من دائرة. أنظر: الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 115.

³ الشافعي فريد، المرجع السابق، ص 201.

³ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص ص 150-151.

النصف بيضوي والعقد ذي حدوة الفرس¹ في الشام والمغرب والعقد ذي الفصوص والعقد ذي ثلاثة فصوص والعقد الفارسي².

ويعد العقد المدبب ابتكارا معماريا عربيا إسلاميا، وهذا العقد عبارة عن مستقيمين مائلين بزواية معينة يتقابلان فيها إلى أعلى ليكونا هذا العقد، كما أن رجلي العقد هي خطوط رأسية مستقيمة وهو على نوعين:

العقد ذي المراكز الأربعة، والعقد ذي المركزين. فالأول ظهر لأول مرة في باب بغداد بمدينة الرقة بسوريا سنة 103هـ/722م. وفي باب العامة بسامراء، وفي جميع البائكات بجامع أبي دلف (246هـ/860م). أما العقد المدبب ذو المركزين فقد ظهر في الجامع الأموي بدمشق (88هـ/707م)، وفي جامع ابن طولون بمصر.

وعرف المسلمون العقد المنفرج في الجوامع الفاطمية، وفي جامع القيروان وجد عقد يجمع بين العقد المدبب ذي المركزين وعقد حدوة الفرس، كما عرف العرب العقد المفصص وهو عبارة عن قوس دائري ذي المركز الواحد، ولكن يختلف عنه باستقامة نهاية رجلي العقد، وبطانيته تتألف من سلسلة أقواس نصف دائرية وتنتهي عند رجلي العقد، إما بكابولي أو مقرنصة³، وأول ما ظهر في باب بغداد في مدينة الرقة وفي سامراء وفي نوافذ جامعها الكبير (234هـ/848م)، كما أنه شاع استعماله في المغرب والأندلس حيث ظهر في رواق المسجد الجامع بقرطبة (169هـ/786م).

¹ يدعى بهذا الاسم أو العقد البيزنطي، وهو النوع الذي له صلة بالاستدارة لأنه لا ينكسر في أعلاه وإنما يضيّق في بداية أرجله، ومركزه يكون تحت نقاط الإشعاع، وقد شاع استخدامه بكثرة في عمارة المغرب الإسلامي. أنظر: الألفي أبو صالح، الفن الإسلامي، دار المعارف، ط2، لبنان، 1967، ص 136.

² الألفي أبو صالح، المرجع السابق، ص 258.

³ خلوصي محمد ماجد، المرجع السابق، ص 500.

كما أستخدم العقد الذي تزين باطنه المقرنصات في بلاد المغرب والأندلس،
وأجمل مثال يعبر عنه وجد في قصر الحمراء بغرناطة (755هـ / 1354م)، وفي مدارس
بني مرين بفاس¹.

3. الأعمدة:

العمود هو ما يدعم به السقف أو الجدار، ولقد أخذ العمود تسميات عدّة
فهو عمود في المشرق، وسارية في المغرب، وشمعة في لبنان، وأسطوان أو اسطوانة على
لسان بعض الكتاب.

وإذا رجعنا إلى ظهور عنصر العمود في العمارة بصفة عامة، فنجد أن أول
ظهور له كان في العمارة الإغريقية وكان في المعابد والكنائس، وتطور عند الرومان
وحظي بمكانة، وتطور تطورا عميقا عند المسلمين في عمارتهم، حيث وجد في
مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - مصنوع من جذوع النخيل، وتطور بعد
ذلك حيث استبدلت بأعمدة من الحجر في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه
- ثم إلى الحجر في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه². كما استعمل
المسلمون في البداية أعمدة كانوا ينقلونها من الكنائس والمعابد والعمائر المخربة التي
كانت تحملها هذه الأعمدة.

وفي جامع عمرو بالفسطاط سنة 21هـ/641م، أمثلة من هذه العمود المختلفة
الطرز، ثم اتخذ المسلمون أعمدة من مبتكراتهم كالمضلعة تضليعا حلزونيا، كتلك التي
وجدت في جامع ابن طولون بمصر، وكذلك الأعمدة ذات البدن المثمن الشكل،
والتي نجدها تنتشر بكثرة في عمائر السلطان قايتباي بمصر.

¹ جودي محمد حسين، العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة، ط1، عمان، 1998، ص 69.

² Bourouiba (R) , Apport de l'Algérie a l'architecture religieuse Arabo-

وكانت أضلاعها تزين بالزخارف النباتية الدقيقة، وكانت الأعمدة الرخامية تستعمل أحيانا في سمك الجدران كأرطبة لها، ومن أمثلة ذلك ما نراه في أسوار القاهرة وأبوها وجامع الصالح طلائع وجامع الظاهر بيبرس¹.

4. التيجان:

التاج هو ما كان في أعلا العمود ممتما ومزينا له، ولقد استعمل عنصر التيجان منذ القدم، فمنه التاج الفرعوني (الحتحوري، والبردي، والنخيلي، والناقوسي)، والتاج الإغريقي (الكورنثي، والأيوبي، والدوري)، والتاج الروماني* (الوسادي، والمركب) وتاج السلة البيزنطي وغيرها.

وعلى الرغم من تعدد أشكال التيجان وقواعد الأعمدة التي نقلت إلى العمائر الإسلامية في بادئ الأمر، فإن الفنانين المسلمين لم يقتبسوا من الفن البيزنطي سوى أبسط أشكال التاج الكورنثي، بعد اختزال أو راق وعدد صفوف الأكتنيس فيه واخرجوا منه نوعا إسلاميا، وجعلوه على شكل كأس على هيئة حلقات ولفائف أو عناصر مروحية انتشرت في الفنون الزخرفية الإسلامية، وأصبح من مميزات الرئيسية². ولقد ابتكر المسلمين أنواعا عديدة من التيجان مثل البصلية الشكل، وتيجانا تشتمل على صف من الوريقات النباتية تتصل في جزئها السفلي ثم تنتشر فتؤلف صفحة من الزخارف النباتية البديعة، كما عرفوا تيجانا من المقرنصات وتيجانا أخرى على هيئة الناقوس. وكانت تيجان الأعمدة تتصل ببعضها البعض عند بدء العقود بروابط خشبية قوية³.

¹ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص ص 152، 153.

* اعتمد الرومان على طراز الإغريق مع التصرف في نسبها وتفصيلها، فجعلوا لها طابعا رومانيا وجمعوا بين العناصر الرئيسية في كل من الأيوبي والكورنثي حيث برز النوع المركب.

² الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 212.

³ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 153.

5. الطاقات والجوفات (الكوة أو الحنيات):

عنصر معماري وهي ليست وليدة الصدفة وإنما لها أغراض خاصة، ووظيفة معينة صنعت من أجلها، لها استعمالات وأنواعها ثلاثة: المثلثة أو المربعة أو المستطيلة. وهي عبارة عن حنية جدارية تأخذ أشكالاً مختلفة، ويجدها خاصة في المباني التقليدية دينية كانت أم مدنية، موزعة في الغرف حسب الحاجة إليها، وقد وجد هذا العنصر في الصحن وغرف النوم.

أما وظيفتها فهي تحفظ الكتب بداخلها ووضع السبوغ والأدوات المخصصة للإتارة وأدوات الزينة للمرأة. فهي ذي وظيفة ادعت الضرورة لوضعها بالمربعة لوضع الكتاب والمثلثة لوضع أدوات الإتارة من الشموع¹.

ولقد أصبحت هذه الزخرفة من أخص المميزات في العمارة الساسانية، ويتجلى ذلك في واجهة طاق كسرى بقصر المدائن الذي ينسب إلى شاپور الأول. فواجهته تزدهن بأربعة طوابق من الطاقات كسيت بطبقة من الجص المنحوت².

أما في المباني الإسلامية فلقد استعملت فيما بعد للتخفيف من ثقل البناء وتخفيف الإحساس بالملل، لاسيما في الجدار ذات المساحات الممتدة بتقسيمها إلى حشوات غائرة بينها، أو أعمدة ملتصقة بالجدار يتكون منها صف أفقي أو أكثر، وتتوج تلك الحشوات في أغلب الأحيان عقود متتالية ومن أمثلة ذلك ما يوجد في باب بغداد بالرقعة، وفي الجدر المحيطة بالفناء الأوسط لقصر الأخيضر التي زينت من الداخل بزخارف متنوعة خلال العصر العباسي في القرن (3 / 9م)، بينما وجدت أو ل أمثلتها في مصر بجامع عمرو بن العاص (21 / 641م) وفي جامع الأزهر (359 - 361 هـ / 970 - 972م)، والحاكم (380 - 403 هـ / 990 - 1013م)³.

¹ الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 181.

² - Marçais (G), L'art musulman, Quadrig / Presse universitaire de Frans, Paris,

1981, p 155

³ الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 382.

6. الدعامات أو العضادات:

العضادة في معناها العام هي مدماك تأسس وكتف باب أو نافذة ودعامة جدار أو عقد، وكل ما يعضد ويدعم من أي ناحية. ومنها عضادة الحوض أو أساسه الذي فوق الأرض، وعضادة الباب أو القطعة الخشبية القائمة عن يمينه وشماله والتي تعرف اليوم بخلق الباب¹. وهي من وسائل الدعم أيضا، تدعم المبنى وتحمل السقف. هي ليست من ابتكار المسلمين، بل وجدت منذ أقدم العصور في المباني القديمة وبشكل ضخم، ولكن أو ل مرة تستعمل بطريقة نظامية كان في آثار سوسة في عهد دولة الأغالبة(3هـ/9م)²، ومنها انتشرت في جميع المباني المشرقية والمغربية، حيث ظهرت في مسجد ابن طولون إذ استعوض عنها بالدعامات فأصبح المسجد أكثر اتساعا³. كما أنها استخدمت في قبة الصخرة (72هـ / 691م)، وفي الجامع الأموي بدمشق (88هـ / 707م)، ثم حصل تطور كبير فيها فظهرت بشكل جديد وفريد من نوعه في جامع سامراء الكبير سنة (234هـ / 848م)، فظهرت قواعد الدعامات مربعة بحيث ترتفع بهيئة مثنى إلى ارتفاع ما يقارب 10.5 م مبنية بالآجر، وفي كل ركن من أركانها الأربعة عمود من الرخام إما اسطواني أو مثنى.

كما شاعت هذه الدعامات بعد ذلك في مناطق أخرى من العالم الإسلامي⁴، حيث نجدها في جامع القرويين بفاس في المغرب الأقصى⁵.

¹ رزق محمد عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، دار جهاد، ط1، 2000، ص 190.

² فكري أحمد، آثار تونس الإسلامية، دار المعارف، تونس، 1949، ص 08.

³ فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، ج1، دار المعارف، مصر، 1965، ص ص 08، 09.

⁴ جودي محمد حسين، المرجع السابق، ص 70.

⁵ - Ricard (P) , Pour comprendre l'art musulman dans l'afrique du nord et en

Espagne hachette , 1924 , p 95.

7. الكوابيل:

الكابولي هو مسند بارز من حجر أو خشب أو آجر أو حديد أحيانا، يثبت في الجدار ليحمل ما فوقه من بروز. وقد استعمله العرب أسفل الأبراج والبروزات ليكون دعامة لحملها، كذلك استعمل أسفل طبقات المآذن بدلا من المقرنصات وأسفل المظلات بجميع أنواعها، كما نجد أيضا أسفل القراميد أعلى أبواب المدخل وأعلى الشبايك العلوية. ونجد الكوابيل كذلك داخل المباني أسفل الكمرات*، في الزوايا القائمة مع الأكتاف الرئيسية.

للكابولي نماذج وأشكال كثيرة منها: الكابولي المروحة لأن واجهته الجانبية تشبه المروحة، والكابولي ذو الدلايات.

وككل العناصر المعمارية فقد كان للكوابيل هي الأخرى نصيبها من الزخارف والألوان، ومن أشكال الكوابيل المبتكرة التي تأثرت بها العمارة الرومانية المسيحية هي الكوابيل ذات النقائق المستعملة في مسجد قرطبة. أما كوابيل الطنوف (الشرافات)، الذي يوضح ثلاثة تصميمات لها فهي تستعمل في المشربيات، كما تستعمل لحمل الرفاف التي تعمل في نهاية المباني المبنية على الطراز العربي، ومنها ما هو بسيط مكون من أضلاع عارية من الخليات ومنها ما هو مزخرف كما يحلى جزؤه القائم المجاور لواجهة المشربية أو البناء بثمين ناتج من رسم مربعين، أحدهما على زاوية 45°، يقطع المربع الآخر العادي الوضع¹، وكثيرا ما كانت هذه الكوابيل على هيئة كباش قرناء أراد المعمار باختيارها، أن يوحي للمشاهد بالقوة والقدرة على حمل الثقل المعماري الواقع عليها، ويتركب الكابولي من عدة قطع حجرية يوضع

* الكمرات: جمع كمرّة وهي لفظ فارسي معرب يطلق على كل بناء فيه عقد، مثل الجسور والقناطر وتأتي في العمارة للدلالة على الجائزة أو المربوعة التي تعرف حاليا باسم العرق أو المرينة الحاملة للسقف. أنظر: رزق عاصم، المرجع السابق، ص 115.

¹ وزير يحيى، المرجع السابق، ج 4، ص 11.

بعضها فوق بعض وتعلوها كمرة خشبية لا تحمل في البنية من الخارج، فتمسك الكباش تارة وكشادة تارة أخرى، فضلا عن قيامها بوظيفة المناورة أثناء القتال، كما نرى في بعض النماذج وكان من المعتاد أن يعادل ارتفاع كل حجر من أحجار الكباش ارتفاع قطعة من قطع مدمك بناء الحائط الذي هو فيه، وقد تقطع أطراف الأحجار والكمرة معا، أو قطع أطراف كل منها بشكل مخالف للأخر.

وعادة ما كان الكابولي ينتهي في أسفله بقطعة مقرنصة على هيئة رقبة معكوسة، وكثيرا ما يوضع الكباش مائلا على الأفق بزاوية قدرها 10°، لتمكين المعمار من تغطية طرفه الخارجي حتى يضع كتلا خشبية بعرض الكباش لحمل واجهة الماوردة¹.

8. الصدقات أو المحاربات:

يعتبر هذا العنصر أحد العناصر الأساسية في البنية الزخرفية للفن الإسلامي، وفي الزخارف المعمارية بالعمائر الدينية والمدنية والعسكرية، وقد لازم هذا العنصر العمارة والفنون منذ فترتها المبكرة. فهو عنصر ممتد في الزمان والمكان، وقد تعددت مجالات استخدامه وعلى جميع المواد وشكل بطرق وأساليب مختلفة، واحتل أماكن مختلفة في المبنى داخليا وخارجيا، وميز أماكن مختلفة كواجهة المحاربات.

واتخذت بعض حنيات المحاربات القديمة شكل صدفة أو بحارة بحرية، وهو عنصر يرى بعضهم أنه ينحدر من الفن الهلينيستي، وما كان أن يقتبس الفن الإسلامي ما لم يكن له دلالة دينية. فالبحارة في هذه الدلالة مرتبطة بالؤلؤة وهي أحد الرموز الإسلامية لفعل إلهي، وفقا لما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من أحاديث في قوله: أن الكون خلق من لؤلؤة بيضاء.

¹ الماوردة: هي عبارة عن بناء بارز عن سمت الواجهة تتركز على كوابل تعلوها مدادات وتصدر واجهته وجانبه شايك أو مشربيات من خشب الخرط، أنظر: رزق محمد عاصم، المرجع السابق، ص 260.

² نفسه: ص 248.

فالمحارة البحرية التي تنغلق على النؤلة وهي كالبصيرة التي هي عين القلب، تنلقى الوحي الإلهي وفي المحراب أعلن على أية حال هذا الوحي¹. وكما استخدم عنصر المحارة في حنية المحراب، استخدمت أيضا في الواجهات الخارجية للمنشآت وغيرها، فهو مخفور عادة في الجص أو الحجر أو الرخام أو الخشب أو المعادن، وورصع بتجويف الحنايا الركنية في القباب وأركان العقود والأسوار، كما تعلق الأجزاء العليا للحدران المشرفة على الصحون في المساجد والمدارس، كما قد تتوسط بطون القباب المقرنصة أو التي تخلو من الزخارف.

وتتعدد صور المحارة إذ تشكل بأسلوب قريب من الطبيعة أو محورة أو شديدة التحوير، وذلك من فترة لأخرى. كما قد تنحت نحتا كاملا أو جزئيا وفي كثير من الأحيان، ولد منها الفنان أشكالا متنوعة وعديدة اتخذ بعضها صورا هندسية على هيئة دائرة مفصصة أو مضلعة أو ذات قنوات. وشكلت أحيانا أخرى تشكيلا هندسيا كما تشكلت تشكيلا نباتيا، ويصعب أحيانا التمييز بين طبيعتها كعنصر نباتي أو عنصر هندسي².

9. الشرفات:

هي عنصر معماري زخرفي عبارة عن وحدات هندسية متكررة تحيط بأعلى المبنى، عرفت منذ القدم في الحضارات السابقة مثل فارس والعراق، وانتشر استعماله في الفن الساساني في الأطراف العليا للمعابر، كما هو الحال في طاق كسرى (الذي يؤرخ فيما بين سنة 590 - 628م)، وظهر في العمارة الرومانية بحيث عثر على بقايا منها في خرائب المعبد الكبير بمدينة تدمر³.

¹ لخرج عبد العزيز، المرجع السابق، ص 159.

² لخرج عبد العزيز، المرجع السابق، ص 158.

³ الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 215.

يسمىها ثروت عكاشة بعرائس مدرجة ويرجعها إلى العصر الأموي في قصر الخير الشرقي، الذي شيده هشام بن عبد الملك سنة (109هـ/727م).¹ أما بالنسبة للعصر العباسي فتتوفر مدينة سامراء على بقايا لهذه الشرفات تتوج جزءا من الجدار الجنوبي للفناء الكبير في قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني (221هـ/836م)²، وللشرفات أمثلة كثيرة نذكر منها:

أ) الشرفات البسيطة:

نجدها في الحصون والقلاع، في أعلى ذروة المباني وهي بهذا التصميم في خطوطها الأفقية والرأسية، توحى للناظر إليها بالقوة بحسب حجمها الكبير، وقد كان المدافعون عن الحصن أو القلعة يحتمون بها مسلطين أسلحتهم سواء كانت نارية أم غير نارية من بين هذه الشرفات.

ب) شرفات العقد المدبب:

رأس هذه الشرفات تكون بخطوطها المستمرة من أعلى إلى أسفل رأسية أو مائلة.

ج) شرفات المثلث المسننة:

عبارة عن مثلثات كبيرة في صف واحد منتظم، كل مثلث منها مقسم إلى مثلثات صغيرة على جانبي ضلعه، وهذه الشرفات نوعان: الأول شرفات صحن جامع الأزهر (359 - 361هـ / 970 - 972م).

وقد وضعت هذه الشرفات بين الشرفة والشرفة فراغ شرفة مقلوبة، ينتج طبيعيا بين الشرفتين اللتين في وضعهما الطبيعي، أما النوع الثاني عبارة عن صف مثلثات كبيرة منتظمة طرفي قاعدة المثلث، تلمس طرفي قاعدتي المثلثين الملاصقين لهذه القاعدة.

¹ ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1961، ص 26.

² الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 215.

د) شرفات العرايس:

وهي نوعان: النوع الأول موجود بأعلى ذروة مسجد أحمد بن طولون، بحيث أن شرفته طرفاها العلويان متلاصقان أما النوع الثاني فشرفاته مورقة الشكل (شكل أو راق الشجرة)، وبين الشرفاة والشرفاة فراغ يعطي شرفاة مقلوبة.

هـ) شرفات العقد الداخلي:

وهي ثلاثة أنواع من الشرفات، الأول هو العقد الدائري ذو المركز الواحد، ثم تستمر باقي العقد بخطوط رأسية الثانية مثل العقد الأول خطوطه الرأسية في وسطها دائرة لتفصل بين الشرفاة والأخرى، أما الشرفاة الثالثة فلها ثلاثة مراكز، لتعطي رأس الشرفاة في وضعها الطبيعي، ثم ثلاثة مراكز مقلوبة لتعطينا الشرفاة المقلوبة¹.

10. القباب:

تعد من العناصر المعمارية المميزة في العمارة الإسلامية عامة وفي العمارة الدينية خاصة. وترمز القبة إلى الاتجاه الرأسي للمكان المقدس نحو السماء، فللمسجد حسب رأي ثروت عكاشة اتجاهان: اتجاه أفقي نحو الكعبة الشريفة واتجاه رأسي نحو السماء، لذا رمز المعماري المسلم إلى الاتجاه الأخير بالقبة².

لقد ساهمت القباب في تغطية فضاءات مختلفة الحجم محددة في الجامع، كما اختلفت القباب نفسها من حيث الاستدارة، وما اتصل بها من قيمة جمالية وزخرفية، كما غطيت من الخارج بمبني مربع الشكل غالبا ما يعلوه سقف منحدر هرمي من القرميد³.

¹ خلوصي محمد ماجد، المرجع السابق، ص 515.

² ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص 101.

³ لخرج عبد العزيز: دراسة ترميم مسجد سيدي أبي مدين، المرحلة الثانية من المشروع، الورشة التقنية للهندسة المعمارية ATAR، مخطوط من مديرية الثقافة، تلمسان، 2000، ص 41.

إن الحضارة الإسلامية شأنا شأن سائر الحضارات الكبرى، قد استعملت القباب في جميع العصور بسبب ما تحده من أثر في النفوس، سواء من الخارج حتى يشاهد المبنى المعني من بعيد، أو من الداخل حتى يمتلئ قلب الزائر بالرهبة.

ولقد انتشرت القباب في العالم الإسلامي والعربي بأنواعها المختلفة، بحيث تأثر المسلمون بالساسانيين والبيزنطيين والأقباط، واستعملوها في الأضرحة التي أطلقت كلمة قبة على مبنى الضريح كله¹.

أما أول قبة بنيت في الإسلام هي قبة مسجد الصخرة المشرفة في بيت المقدس التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72 هـ / 692 م. والتي تعتبر إلى اليوم من أجمل القباب الإسلامية.

أما أول استخدام حقيقي للقبة في المسجد كان أمام وأعلى المحاريب تأكيداً على مكانتها وأهميتها، كما هو الشأن في الجامع الأموي بدمشق وجامعي الأزهر والحاكم بالقاهرة².

أبدع هذه القباب الإسلامية موجودة في مصر وسوريا، ويرجع أقدمها إلى العصر الفاطمي، بحيث كانت مقرنصاتها من حطة واحدة في البداية ثم تطورت إلى حطتين في القرن (6هـ / 13م)، ودخلها التضييع³.

كما تميزت القباب في مصر بارتفاعها وتناسب أبعادها، بما على سطحها من زخارف هندسية بارزة وبديعة أو نباتية تعطي عمقا وظلالا على سطحها، كما عمد المهندسون في ذلك الوقت إلى زيادة ارتفاع القبة برفع الجزء الأسفل منها. وقد تعددت أنواع القباب منها النصف كروية والمضلعة والبيضاوية والبصلية الشكل⁴.

¹ البهنسي عفيف، الفن الإسلامي، دار طلاس، مطبعة الصباح، ط1، دمشق، 1986، ص 489

² وزير يحيى، المرجع السابق، ج2، ص 79.

³ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 153.

⁴ البهنسي عفيف، المرجع السابق، ص 489.

أما شكل القباب في بلاد المغرب فقد كان معظمها نصف كروية الشكل تقريبا، ولم تكن فيها زخارف خارجية إلا نادرا. والواقع أن إقبال المغرب على تشييد القباب لم يكن كبيرا¹.

وتعد قبة المحراب في جامع القيروان سنة (51هـ / 671م)، من أقدم القباب الإسلامية في بلاد المغرب التي يعود تاريخها إلى سنة (231هـ / 836م). كما أن معظم القباب في إيران والعراق بضاوية أو بصلية الشكل، وبعضها مغطى بالقيشاني ذي الألوان الزاهية والبعض الآخر مغطى برفائق من الذهب الخالص².

11 - المحراب:

المحراب لغة هو الموضع العالي وصدر البيت، وأكرم مواضعه وأشرف المجالس، في لسان العرب لابن منظور: "المحارب صدور المجالس ومنه محراب المسجد والمحراب القبلة ومحراب المسجد أيضا"³.

وقد وردت كلمة محراب في القرآن الكريم، بمعنى المكان العالي المكرم في المنزل، {وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب} ⁴، كما وردت كلمة محراب في القرآن في موضعين: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم سبحوا بكرة وعشيا} ⁵. وقوله تعالى أيضا: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحضورا ونبينا من الصالحين} ⁶.

¹ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 154.

² الهنسي عفيف، المرجع السابق، ص 154.

³ ابن منظور أبو الفضل جمال، لسان العرب، مج 1، دار صادر، بيروت، 1956، ص 305.

⁴ القرآن الكريم، سورة ص، الآية: 21.

⁵ القرآن الكريم، سورة مريم، الآية: 11.

⁶ القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 39.

وتستخدم كلمة المحراب بالنسبة لمساجد كدلالة على العلامة، التي تعين اتجاه أقدس مكان عند المسلمين، يتجهون إليه في صلاتهم، وسواء كانت هذه العلامة على هيئة مسطح أو غائر أو بارز، فهي مجرد رمز يعين اتجاه بيت الله الحرام الكعبة. ولقد باتت الحاجة ملحة لتحديد اتجاه القبلة التي أمر الله عباده بالاتجاه إليها في صلاتهم، لقوله تعالى: {فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام} ¹. وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الحرية في تحديد اتجاه القبلة، أثناء الصلاة ولم تعرف الكلمة بمعناها المتداول حالياً، إلا بعد انتشار الإسلام مشرقاً ومغرباً.

ولم يعرف بالتحديد من كان أول من أوجد المحراب في المسجد، فهناك أقوال تنسب ذلك إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وأخرى تنسب إلى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وهناك أقوال تنسب إلى آخرين. وتفسر تعدد الروايات هذا بأن كلمة المحراب استخدمت كما سبق وأن ذكرنا بمعان عديدة، مما لا يمكن معه التأكيد ما إذا كان المقصود هو المحراب كما هو معروف اليوم ²، والمخاريب نوعان إما مضلعة أو نصف دائرية فمن أمثلة المخاريب المضلعة محراب قبة الصخرة، أما المخاريب الجحوفة، فيرجح أن أول من نفذه هو والي المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز عندما أعاد بناء المسجد النبوي الشريف في خلافة الوليد بن عبد الملك، والتي تمت في سنة 92 هـ / 711 م، والمخاريب الجحوفة منها ما هو ذو تجويف نصف دائري من أمثلته في مصر محراب جامع ابن طولون، وهناك مخاريب بجحوفة كثيرة الأضلاع.

والحقيقة أن المعماري المسلم اختار هذه الهيئة الجحوفة للمحراب لغرضين أساسيين، غير تعيين اتجاه القبلة أو لهما توفير صف للمصلين، فحسب رأي أحمد فكري أن الإمام الذي يتقدم المصلين يكون منعزلاً عنهم، فيحتل قدر صفاً بأكمله أي فضاء واسعاً، لذا كان المهندس المسلم دوماً يحرص على استغلال الفضاءات المتوفرة لديه

¹ القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: 144.

² وزيري يحيى، المرجع السابق، ج 2، ص 11.

قدر الإمكان، فقد عمد إلى فتح تجويف داخل جدار القبلة تأوي الإمام لأداء فرائض الصلاة براحة تامة¹.

أما الغرض الثاني الغرض الثاني توظيف تجويف المحراب لتضخيم صوت الإمام ليبلغ المصلين في الصفوف الخلفية، في وقت لم تكن مكبرات الصوت موجودة. لقد تنوعت المواد المستعملة في بناء المحارب، حيث استخدم الحجر والرخام والخزف والفسيفساء والخشب وإلى غير ذلك، ويلاحظ أنه قد تعددت المحارب في جدار القبلة ويرجع البعض سبب ذلك أن يكون تأكيداً لاتجاه القبلة، وأن كل محراب كان مخصصاً لمذهب من المذاهب الأربعة أو كان ذلك للزينة.

فالمحراب كعنصر معماري مميز لعمارة المسجد، يعتبر محطة رئيسية في طريق الحضارة المعمارية بشكل عام والفن الإسلامي بشكل خاص².

12 - المنبر:

اشتقت الكلمة من "نبر وانثير" بمعنى ارتفاع، ويشير الزمرخشي في معجمه "أساس البلاغة"، إلى أن كلمة منبر هي كلمة عربية حيث يقول: "نبر فلان أي نطق بصوت رفيع ورجل نبار بالكلام ومنه المنبر". فالمنبر مرقاة الخاطب سمي به لارتفاعه وعلوه، أنبر الأمير بمعنى ارتفع فوق المنبر، فكل مرتفع منبر وكل ما رفعته قد نبرته³.

وهناك من ذهب إلى أن كلمة منبر من الألفاظ الحبشية الدخيلة على اللغة العربية، أصلها في الحبشة "ونبر" أي كرسي، فقلب العرب الواو ميم واستعملوها على هذه الصورة، وهي لا تزال تستعمل عند الأحباش للدلالة على سدة كبيرة لكرسي الملك أو رئيس الديوان أو نحوهما، فمثلاً يدعون سدة النجاشي "ونبر دوايت" أي سدة الملك.

¹ معروف بلحاج، العمارة الدينية الإباضية بمنطقة واد مزاب، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة تلمسان، 2002، ص ص 213، 214.

² وزيري يحيى، المرجع السابق، ج2، ص 11.

³ ابن منظور أبو الفضل جمال، المصدر السابق، مج 5، ص 189.

ولما انتقلت الكلمة إلى العرب جاء تحم على وضعها الأصلي أي وزير، وهم لم يبدلوا منها سوى النواو وقلبها ميم فقالوا منبر. فالمنبر إذن هو منصة مرتفعة تتسع لوقوف وجلس الخطيب، كما استخدم أيام الجمعة والأعياد والمناسبات، وجاء في سنن البيهقي ما رواه بسنده عن عبد الله بن عمر قال: إن تميم الذاري قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أسن وأثقل: ألا تتخذ لك منبرا يحمل أو يجمع عظامك أو كلمة تشبهها، فوافقه الرسول على ذلك، فصنع تميم المنبر من خشب من طرفاء الغابة وهو خشب قوي الاحتمال طويل العمر، كان عبارة عن درجتين خشبيتين، ودرجة ثالثة للجلوس وبذلك جاء المنبر النبوي بسيطا في شكله متينا في صناعته منطويا في وظيفته¹.

بينما الخليفة الأول أبوبكر الصديق كان يجلس على الدرجة الثانية ويضع رجله على الدرجة الأولى، وهناك بعض المصادر تشير إلى المنبر الأصلي للمدينة المنورة يتألف من ست درجات، بينما أقدم المنابر الموجودة تتشكل من سبع إلى إحدى عشر درجة². وفي العقود القليلة التي تلت الهجرة النبوية كان الخطيب يقف مستندا إلى عصا من الخشب تأسيا بالرسول - صلى الله عليه وسلم -، وحين بنى والي مصر عمرو بن العاص مسجده بالفسطاط بمصر، أقام فيه منبرا لكن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمره بإزالته ففعل.

وأقدم منبر بعد منبر مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو المنبر الذي أقامه قره بن شريك سنة 132 هـ / 750 م في مسجد عمرو بن العاص، وتوالت بعد ذلك لإقامة المنابر في المساجد بمختلف أنحاء البلاد الإسلامية³.

¹ وزير يحي، المرجع السابق، ج 2، ص 27.

² Burckhardt (Titus), l'art Islam, édition sindbed, Paris, 1985, pp 136, 137

³ الضاوي احمد، المرجع السابق، ص 230.

والمناير من حيث مادة إنشائها منها مناير خشبية ورخامية وحجرية، فالمناير الخشبية تتكون أجزائها من الخشب، وأقدم منبر خشبي باق في العالم العربي هو منبر جامع القيروان الذي يتألف من إحدى عشرة درجة، أما المناير الرخامية فهي التي بنيت وكسيت بالرخام، وأقدم ما عرف منها في مصر.

والمناير في شكله العام عبارة عن هيكل خشبي اتخذ شكل مثلث قائم الزوايا، يتكون من مقدم*، يوصل إلى المقعد عبر طريق متدرجة، وفي أغلب الأحيان يتوج المقدم بقوس يشبه القنطرة، وللمناير ريشتان** جانبيتان.

وللمناير علاقة وثيقة ومتراطة مع المحراب، ويمكن أن يكون المنبر على يسار المحراب باتجاه يمين المصلين إذا استقبل القبلة، هذا ما ينطبق على مساجد المغرب الأوسط، وللمناير عدة وظائف يلخصها الحديث الشريف التالي: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صعد المنبر سلم، فإذا جلس أذن المؤذن، وكان يخطب خطبتين ويجلس جلسيتين... وكان يتكأ على عصا يخطب عليها يوم الجمعة، وكانت الشوحت*، وكان إذا خطب استقبله الناس بوجوههم واسغوا بأسماعهم ورمقوه بأبصارهم...¹

من هذا الحديث يمكن حصر وظيفة المنبر فيما يلي:

- يسمح للخطيب برفع صوته إلى أبعد مكان وليراه المصلين.

- يمكن كل مصلي من رؤية من يقدم له النصح والإرشاد.

- وجود المنبر دليل على إقامة صلاة الجمعة.

* الباب الرئيسي للمناير (مدخله).

** الريشة: كسوة المنبر الجانبية.

* الشوحت: جاءت من لفظ شوح وهي شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطية، أنظر: قاموس منجد الطلاب، بيروت، 1886، ص 386.

¹ ابن سعد محمد، الطبقات الكبرى، مج 1، تحقيق: عطا عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص 249.

وهكذا فإن المنبر في الإسلام عنوما وعمارة المغرب الأوسط خصوصا له دلالة حضارية ودينية وجمالية.

13- المئذنة:

لقد اختلفت أسماء المئذنة وإن اتفقت دلالتها، فهي إما مئذنة أو منارة أو صومعة، وأطلق اسم الصومعة ربما يرجع إلى أن العرب كانوا يسمون أبراج الزهاد بالصوامع¹، وقد جاء ذكر كلمة صومعة في القرآن الكريم: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا}² وما زالت تسمية الصومعة متداولة في بلاد المغرب الإسلامي، كما سميت بالعساس وهي كلمة خاصة ببعض المناطق كواد ميزاب بمعنى مكان المراقبة والحراسة³. وكل هذه التسميات الخاصة بالمئذنة تدل على هيكل بنائي مرتفع في الفضاء متنوع في شكله، يتضمن داخله درج صاعد حول نواة مركزية مختلفة الشكل، يصعد إليها المؤذن على الأعلى.

ويعتقد أن أول من بنى مئذنة في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان في العهد الأموي وذلك في الجامع الكبير بدمشق، وقيل أن أول مئذنة هي تلك التي بناها زياد بن أبيه بالحجارة في مسجد البصرة عند تجديده سنة 45 هـ / 665 م، تبعته بعد ذلك بناء أربعة صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص سنة 53 هـ / 673 م⁴.

وأقدم المآذن القائمة إلى الآن: صومعة جامع عقبة بن نافع بالقيروان، التي أقامها زياد الله الأول الأغلبي إذ تعد نموذجا لمآذن مساجد المغرب العربي والأندلسي⁵، ومن نماذج المآذن التي بلغت حدا عاليا من الروعة والجمال تصميمها وتنفيذها، مآذن

¹ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 144.

² القرآن الكريم، سورة الحج، الآية: 40.

³ معروف بلحاج، المرجع السابق، 219.

⁴ وزير ي يحيى، المرجع السابق، ج2: ص 101.

⁵ الألفي أبو صالح، المرجع السابق، ص 127.

المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة والجامع الأزهر وجامع ابن طولون والجامع الأموي بدمشق، المسجد الكبير بالرباط وجامع القيروان وغيرها.

ومع مرور الزمن أصبحت المئذنة قطاعا قائما بذاته من فنون العمارة الإسلامية، فقد وجهت لها عناية كبيرة في التصميم والتنفيذ، وتفاوتت ارتفاعاتها إلى عدة عشرات من الأمتار، وزخرف بناؤها كما أعطت أشكالاً مختلفة ما بين مدورة ومضلعة ومربعة وقاعدتها تتناسب مع ارتفاعها، وفي بعض المساجد لاسيما الكبيرة منها بنيت أكثر من مئذنة ووصل عددها في بعض المساجد إلى عشرة¹.

هذا وقد أخذت المآذن عدة أشكال وأنماط معمارية مختلفة، فجاءت بتصميم مربع الشكل في سوريا وبلاد المغرب والأندلس، وحلزونية الشكل في سامراء، وهناك ذات الشكل الأسطواني الدقيق أو القلمي في إيران.

كما لم تخصص للمئذنة موقعا خاصا في هيكل المسجد كما الشأن بالنسبة للمحراب، لذا يمكن أن تكون جزءا من المبنى كما هو الشأن في الجامع الأموي بدمشق وجامع القيروان وقرطبة، أو قائمة بذاتها كما هو الشأن في الجامع الكبير بسامراء.

أما المواد التي استعملت في بناء المآذن تختلف باختلاف طبيعة كل بلد، فهي من الحجر في الشام ومن اللبن (الطوب) في مصر، ومن الفخار في العراق وإيران، غير أن اختلاف المادة لم يمنع من تزيينها وزخرفتها حفرا وتلوينا ورصما وتغشية بالقاشاني اللامع وحتى بالذهب الخالص، لهذا جرى التفنن في صنع المآذن حتى جاءت متألفة مرتفعة على السماء، مرددة في كل يوم نشيدا إلهيا خالدا " الله أكبر"². ومن وظائف المئذنة:

¹ الضاوي أحمد، المرجع السابق، ص 235.

² حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 151.

- الإعلان عن حلول أوقات الصلاة، ويدعوهم فيها إلى الإقبال على الجامع لأداء الصلوات الخمسة بعبارة معلومة وكلمات محفوظة ترد في الصباح والمساء.
- وكلمة العساس التي أطلقت على المفذنة في المغرب الأوسط تدل على وظيفتها الثانوية وهي مراقبة وحراسة المدينة.
- المفذنة كبرج مراقبة وحراسة أي وظيفة دفاعية.

14 - الصحن:

صحن المسجد هو المساحة المكشوفة منه، والتي تتصل بحرم المسجد وأروقته وجدرانه الخارجية، ولمعظم المساجد الرسمية الجامعة صحنون، والصحن بالنسبة للجامع هو رحبته المتسعة التي تلي بيت الصلاة، وبالنسبة للمسجد هو جزء منه ومكمل له وأحد عناصره الرئيسية التي لا غنى له عليه.

وفي كثير من المساجد يضم الصحن مصادر للماء، يتوضأ به الناس، وهي في الأغلب على شكل بيارات، يندفع منها الماء الجاري وتشكل بالإضافة إلى مهمتها الأساسية لمسة جمالية على صحن المسجد كما في المسجد الأموي بالشام، كذلك يستعمل الصحن في استيعاب عدد المصلين إذا زادوا على طاقة حرم المسجد، خاصة في المسجد الجامع كالمسجد الحرام أو المسجد النبوي، ومسجد ابن طولون بالقاهرة أقيمت في صحنه قباب صغيرة ذات أبواب مختلفة، ووضعت فيه خزينة الدولة وأوراقها ووثائقها الهامة¹. وللصحن في المباني الإسلامية غاية مهمة ووظائف متعددة، فمنه يستمد المبنى معظم حاجياته من التهوية والإضاءة ويقوم بدور تكسير حدة النضوء، كما يقوم بترشيح الهواء وتنقيته بما علق به من الغبار والأتربة، كما له دور في تكسير شدة الرياح والتقليل من حدة التيارات الهوائية الباردة شتاء.

¹ الضاوي أحمد، المرجع السابق، ص ص 218، 222.

وبالإضافة إلى دور الصحن في إحداث التوازن الطبيعي والمناخي في المبنى في مختلف أجزائه ووحداته، يساهم في التخفيف من حدّة الضوضاء المنبعثة من الشوارع والأزقة والدروب².

٢- الأبنية الحديثة في القاهرة

تتميز الأبنية الحديثة في القاهرة بارتفاعها وتعدد طوابقها.

وتتميز أيضاً بكونها مبنية من الخرسانة المسلحة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد صلبة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد ثقيلة.

وهذا يعني أنها مبنية من مواد كثيفة.

² - نفسه، ص 360.